السفر العجب الى بلاد الذهب

للاب اميل ريفو اليسوعي (تابع لما سبق)

فصل ثانٍ

التجربة او شيطان المال

وكانت مريم لدى افتكارها بسفر فاضل تقلق وتضطرب وتذهب منها الحيرة كل مذهب. فكم شاهدت من الذين هجروا قريتها الى الديار الاميركية وما عادت سمعت عنهم بعد ذلك خبرًا لانهم ماتوا في بلاد الغربة نازحين عن اوطانهم. وكم من الذين عادوا بعد وصولهم الى مرسيلية لانّ بنيتهم لم تكن تستطيع ان تتحمّل المناخ الذي لم تألفهُ. بل كم من الذين بعد ما انتهوا الى نيويورك او الى سان فرنسيسكو رأوا انفسهم عاجزين عن اقلّ عمل لجهلهم طرق الاشغال ولغة البلاد لاسيما وان جميعهم لم يكونوا قد شاهدوا من الدنيا سوى قريتهم فأنفقوا ما تبقّى معهم من الدراهم القليلة وأعيدوا الى بلادهم شفقةً ومرحمةً. نعم ان فاضل كان ممكنًا لهُ ان يصيب حظًّا في اميركة ولكن من يضمن لهُ ان لا يخسر فيها ما بين يديهِ من الدراهم اليسيرة. أو ليس ان المصلحة تستدعي المحافظة على الموجود لان المثل يقول عصفور في اليد خير من اثنين على الشجرة

وبينما كانت والدة فاضل تفتكر في هذه الامور كلها وقد حان الظهر دخل فاضل ليتغدّى واخذ يتكلم على الورقة او بالحري السفتجة التي وردت الى موسى

اما مريم فصرّحت لابنها بمخاوفها من السفر الى اميركة ولم يكن فاضل مصمماً وتتذبذ كل التصميم. وبينما هما في الحديث اذ طُرق الباب ودخل موسى فقال: اني نازل غدًا الى بيروت لاقبض الدراهم التي ارسلها لي ابني ومهي في الغربة محلّ فارغ فاذا شاء فاضل ان يرافقني فما عليهِ الّا ان يدفع اجرة طفيفة قدرها خمسة قروش وربما انهُ استطاع ان ينفعني لانهُ يتكلّم الافرنسية . هذا على اني كثيرًا ما كنت اسمعهُ قبلًا يتشوّق للنزول الى بيروت لمشترى بعض لوازمهِ

فرأى فاضل ضد هذا الخطاب ان الفرصة مناسبة وان الاجدر بهِ ان يغتنمها اذ لا تتهيأ لهُ كل وقت غربة باجرة هكذا يسيرة. وفضلًا عن ذلك فقد كانت لهُ في بيروت

اشغال يحتاج الى قضائها واغراض يشتريها ويعود بها الى قريته فيربح من بيعها ربحاً غير قليل. واخذ يمثل لذهنه كيف يرافق موسى الى البنك العثماني ويشاهد الذهب فيرجع ويحدث جيرانهُ واصدقاءهُ بما رأى

ان جميع هذه الامور حملت فاضل ان يعزم على السفر عزماً اكيداً. فلما كان صباح اليوم التالي بكّر الى السائق ابرهيم فاذا به قد حضّر العربة فركبها مع موسى وثلاثة آخرين من جيرة المحلّ ثم انضمّ اليهم راكب سادس في الطريق بعد ان تحاور مع السائق مخاورةً طويلة بخصوص الاجرة. وبينما الخيل تجري مسرعة في الطريق التي هي ذات اكواع كثيرة كان فاضل يهجس في امور مختلفة بل متناقضة فكان يفتكر في امريكة ووسائل كسب المال فيها وفي طول مدّة السفر الى هذه البلاد النائية وفي حزن والدتهِ وأسفها اذا فاتحها بشيء من ذلك. ولكن كان يوطّن النفس على انهُ سيعود ذا ثروة طائلة وهكذا تتعزّى والدته على ما ذاقت من مرارة بعده. اما غيبتهُ عن الوطن فلا تطول الّا سنة او سنتين او خمس سنين على الكثير. فيذهب ويربح كثيراً ويعود

ولما انتهت العربة الى الساحل افاق رفقاء فاضل الذين كانوا قد أغفوا جميعاً فنزلوا الى دكّان وتناولوا شيئاً من المرّتك ثم عادوا واخذوا يغنّون وعادت العربة تجري والغبار ينعقد عليها كالسحاب من كل الجوانب. وحالما وصلوا الى بيروت ووقفت العربة في ساحة البرج كان الواجب بحسب العادة ان يتفرّقوا ويذهب كلّ منهم الى قضاء اشغالهِ ولكنهم اجتمعوا حول موسى ورافقوهُ الى البنك العثماني ومشى فاضل في مقدّمة الجميع وهو اشدّ قلقاً من كلهم

فارتقوا بسرعة السلّم المؤدية الى البنك ودخلوا الباب فاذا هم في القاعة الكبرى حيث كانوا يسمعون رنين العملة ويشاهدون من خلال الدرابزونات صناديق الذهب. فتقدّم فاضل الى احد المستخدمين واطلعهُ على الورقة طالباً دفع قيمتها فاحالهُ الى مستخدم ثانٍ وهذا الثاني احالهُ الى ثالث حتى انتهى اخيراً الى صاحب الصندوق الذي بعد ان اطلّع على الورقة وفحصها عدّ لهُ خمساً وعشرين ليرة على الرخامة التي في طاقة الدرابزين فبهت الجميع من منظر الذهب البرّاق وحنوا رؤوسهم واحدقوا بابصارهم يتأملون فيها. اما المستخدم فضحك على ما شاهد فيهم من الاندهاش. وكان فاضل واقفاً خلف موسى وودّ أن يلمس بيديهِ تلك الليرات الصفراء ولكن موسى بعد ان حسبها ثلاث مرّات ليتأكد عددها أخفاها تحت زنارهِ بحيث يأمن عليها من ايدي

النشأتين ثم تفرق الكل وهم سكوت وقد سحرهم منظر الذهب

وفي مساء النهار عادوا الى ضيعتهم. وكانت امّ فاضل منتظرة في اسفل القرية عند العين التي اعتادت ان تستقي منها وجرّتها على كتفها. ووصلت العربة قبل عادتها وكان السائق طرباً والخيل تُصعّد بنشاط وسرعة في الطريق الشائقة المؤدية الى القرية

وما كادت مريم تبصرها حتى هتفت باعلى صوتها قائلة: « الحمد لله على رجوعكم بخير وسلامة ». فاجابوها بعبارات الشكر

وحينئذٍ وقفت العربة ونزل منها فاضل فرانق والدته الى البيت امّا هي فاخذت تستعلمهُ عن اخبار نزوله الى بيروت وافتتحت الكلام بقولها:

« لا شكَّ انكم صرفتم وقتاً طويلاً واستعملتم وسائل عديدة وذهبتم وجئتم مرّات قبل ان تتمكّنوا من قبض قيمة الورقة التي كانت بيد موسى »

فقال فاضل بابتهاج: « كلاَّ ان موسى قبض قيمة الورقة دون عناء ولم يتكلّف غير التوقيع عليها. وبعد ان دوّن امضاءهُ في اسفلها نقدهُ صرّاف البنك خمسمائة فرنك وقد رأيتها بعيني لاني كنت واقفاً بجانبه »

وفي اليوم الثاني اصبحت تلك الورقة حديث اهل القرية جميعها حتى كانت النساء تتكلّم بشأنها لدى اجتماعهنَّ عند العين للاستقاء جرارهنّ. وبما ان كل شيء يتجسّم بتداول الالسنة ما لبثت تلك الخمسمائة فرنك بضعة ايام ان صارت خمسمائة ليرة ثم خمسة آلاف ليرة. والغنى كما هو معروف يرفع درجة صاحبه ويُعلي مقامهُ ويسوّدهُ بين قومه ولو لم يكن من اهل السيادة. فلمّا صار موسى معروفاً عند اهل قريته بالثروة اتجهت اليه الابصار وحُفَّ بما لا مزيد عليه من الاجلال والاعتبار مع انهُ كان من قبل خامل الذكر لا يعرف ان يتحدَّث عن غير الثور والبقرة وزراعة التوت وما اشبه ذلك من الامور

ومذ ذاك اتّقدت في نفس فاضل رغبة السفر الى العالم الجديد وكادت تحرق حشاهُ فاطلع والدتهُ على مرادهِ كأنهُ يريد استئذانها. امّا هي فتردَّدت في الجواب لانها كانت تخشى على ولدها ان يُلمَّ به خطر من الاخطار ثم قالت: انت تعلم يا ولدي اني لا استطيع مفارقتك فهل يطاوعك قلبك ان تتركني وحيدة في هذه القرية اتقلَّب على جمر الحزن لفرقتك

قال فاضل: لكِ عرضٌ في شقيقتي وردة فانها قد ادركت العشرين وما عادت

صغيرة . ثم ان البريد سريع وسينقل لكِ أخباري من كلّ بلدة اصل اليها ومتى انتهيتُ الى هناك أُرسل لكِ اوراقًا عديدة كالتي وردت الى موسى كل واحدة منها بقيمة خمسمائة فرنك

فابرقت اسرّة مريم برهةً لمّا سمعت امر النقود ثم قالت :

كيف وباي طريقةٍ تحصل الفتى في اميركة

قال : انني ألاقي هناك كثيرًا من الاصدقاء الذين ينتظرونني فيمدّون لي يد المساعدة ويدخلونني في سلك التجارة . وانتِ تعلمين يا أُمي اني لستُ قليل الخبرة في أُمور التجارة ولقد طالما ربحت بها هنا ما كان كافيًا ليعدّنا الناس من مياسير الحال . ان من يجهل اميركة يا أُماه لا يعرف شيئًا . ففي اميركة سكك حديدية وتلغرافات والتجارة منتشرة في كل اصقاعها والمصالح عديدة في جميع نواحيها ورواتب المستخدمين وفيرة وليست كرواتب المستخدمين في غير هذه البلاد زهيدة يسيرة لا تكاد تفي بنفقة المأكل والمشرب فان الاميركيين كما لا يخفى يبذلون عن يد سخية . وسآخذ معي بعض اشياء من بضائع بلادنا السوريّة وبعض طُرَف من لبنان وبعد ان يتمّ لي بيعُها باقرب مدّة بأثمان غالية نظرًا لشغف الاميركيين به اتوجّه الى مناجم الذهب في كاليفورنية فاشتري قطعةً من الارض وآخذ في التقاط شذوره الثمينة . ومتى صرت غنيًا مثريًا اعود الى لبنان وما ادراكِ اذا لاقيتكِ مساء ذات يوم آتيةً من العين وانت حاملة جرّتكِ فاحلّ نطاقي وأُريكِ القطع الذهبية الوفيرة التي اتيتُ بها من سفري . ووقتئذٍ استريح وأبني بيتًا جميلًا ذا شُرفات من الرخام وسقف من القرميد فتدخلينهُ انتِ اوّلًا وادخل انا بعدكِ ولا يعود فكر السفر يخطر ببالي . ولا يخفى عليكِ انّ الذهب جلّاب الاعتبار فيقبل اهل القرية جميعًا على اكرامنا وتجلّتنا وتزوّج شقيقتنا وردة باغنى شابّ فيهم

وكانت مريم تسمع بسكوت واصغاء يقاطعها احيانًا إشارات دالة على تعجّبها مما كان يرويهِ فاضل من الامور الغريبة . وحينئذٍ حلّ الطمع محلّ الحبّ الوالدي وتشوّقت ان ترى لابنها مقامًا رفيعًا في الدنيا حتى تعلو هي ايضًا بعلوّه . وبما ان حبّ المال قد فتن لبّها كما امتلك قلب ابنها طرحت من ذهنها ما كانت مزمعةً ان تقاسيهُ من ألم الفراق ولوعة النوى . فاجابتهُ قائلةً : « سافر الى اميركة معدن المال » وما فكّرت ان ترخيصها لهُ بالسفر سوف يجرّعها مرارات . فما كل من يسافر يعود واذا اتفق للقليلين ان يعودوا اغنياء فكُن

على يقين انهم اذا كانوا قد ربحوا المال فقد خسروا تلك السذاجة القديمة وحيوية الايمان كما قد شوهد ذلك فعلاً

وبما ان والدة فاضل كانت قد رخّصت لهُ بالسفر اخذت في تهيئة المعدّات اللازمة فأتت بثلاثة صناديق خشبية مرصّعة بقطع من العاج على أشكال رائعة فوضعت في الاولى بمساعدة ابنتها وردة كل ملابس فاضل من قمصان وسراويل ومناديل (محارم) وغيرها. وملأت الثانية من الزيتون والبطاطا والزبيب الى غير ذلك من المؤونة. لانَّ فاضل ارتأى حبًا بالاقتصاد ان لا يشتري في طريقهِ شيئاً بل يستصحب معهُ من المآكل ما يكفيهِ حتى ينتهي الى نيويرك. اما الصندوقة الثالثة فتركها فارغةً وكان مراد فاضل ان يملأها في بيروت بضائع شرقية

الفصل الثالث

في السفر

وبينما كانت مريم تهيئ معدّات السفر اخذ فاضل يبيع من املاكهِ الى هذا حقلاً والى الآخر قطعة من غراس التوت والى ذاك كرمًا. أجل ان اهل القرية اقبلوا على المشتري منهُ ولكنهُ لم يتمكن من مبيعهم بالاسعار التي كان يشتهيها ومن اين لهُ ان يتربّص فرصة أحسن وارفق طالما كان يعتقد انهُ متى انتهى الى اميركة يعوّض الخسارة ببضعة ايام. والحقيقة انَّهُ لم يخسر شيئاً ولكن عادة بعض الناس أنهم يعدّون عدم الربح خسارةً وكان فاضل من هذا الصنف

وحان اخيرًا ميعاد السفر وكان في صباح يوم من ايام تشرين الثاني اشتدَّ فيهِ المطر وقرس البرد وتعرّت الطبيعة من زينتها. امَّا فاضل فلم تغمض لهُ عين طول الليل وقام من فراشهِ مضطربًا متزعجًا ولم تكن مريم اوفر منهُ سكينة لانَّ احلامًا غريبة ومريبة كدّرت ما امكنها اتخاذه من الراحة اليسيرة. كأنَّ تلك الهواجس كانت امائر او مقدّمات لما هو مزمع ان يحلّ بها من الشر

فبعد ان هيَّأ فاضل ووالدته على نور القنديل معدّاتهِ الاخيرة للسفر أقام هو وإيّاها ساكتين حتى اقبلت العربة في الظلمة وسُمع طنين جلاجلها. ولمَّا حقَّ اوان الانفصال تفجّرت الدموع من عيني مريم كانهما ميزابان ولم تعد قادرة على إمساكهما. امَّا فاضل

فلبث واقفاً حائراً رأسهُ وهو لا يتلفظ بكلمة . ثم طرق الباب ودخل السائق ويده فانوس . وحينئذٍ قبّلت مريم وحيدها القبلة الاخيرة وتقدّمت ابنتها وردة فعانقت اخاها

وبينما العربة تنزل مسرعة في الجبل وضياء الفجر يلوح شيئاً فشيئاً متكللاً قمم لبنان باشعّتهِ الارجوانية كان فاضل يلتفت الى قريتهِ وبيتهِ ليتزوّد منهما النظر الاخير . وكأنّ سحابة من الغمّ والهمّ غشّت على عينيهِ فاخذ يودّع املاكهُ وحقولهُ ووالدتهُ وشقيقتهُ وهو غائص في بحر من الافكار . وكانت العربة تجدّ في السير فما شعر فاضل الّا وقد انتهى الى بيروت ولما مرّ تجاه البنك العثماني تذكّر مجيئهُ اليهِ مع موسى وكيف دفع لهُ مبلغ الخمسمائة فرنك وقال في نفسهِ : « لا شك اني متى صرت الى اميركة أربح غنى وافرًا وثروةً عظيمة » . وأخذ يعلّل نفسهُ بهذا الفكر حتى زال عنهُ الغم وذهب الانقباض ولم يعد يفكر الّا بركوب البحر

(ستأتي البقية)

كتب شرقية جديدة

كتاب اللُّمعة الشهيَّة في نحو اللغة السريانيَّة

تأليف السيد اقليمس يوسف داود مطران دمشق على السريان

طبع في الموصل بمطبعة الآباء الدومنكيين طبعة ثانية منقحة ومزيد عليها

انَّ للطيب الذكر السيد اقليمس يوسف داود تركةً علميَّة قدَّرها حقّ قدرها مشاهيرُ علماء الغرب فضلاً عن ادباء اصقاعنا الشرقيَّة . ومن طالع قائمة تآليفهِ الجليلة التي سرد اسماءها جناب الكنت فيليب دي طرّازي في كتابهِ المعنون « القلادة النفيسة في فقيد العلم والكنيسة » لا يمتلك عن العجب لعلوّ همَّة ذلك السيّد المفضال وسعة معارفهِ في كلّ فنون الادب واصناف العلوم الدينيَّة والمدنيَّة الشائعة بين العجم والعرب

هذا وانَّ تأليفهُ في نحو اللغة السريانية كان اصاب بين بقيَّة تصانيفهِ مقاماً خطيرًا شهد لهُ كبار المستشرقين فاضحى لطلبة اللغات الآرامية منارًا يستضئون بهِ في غوامض مسائلهم . ودستورًا يرجعون اليهِ في غامض مشاكلهم . وما مرَّ عليهِ ثماني سنوات حتى نفد